التحوّل الجمالي في الكتابة الأندلسية بين الرسالة والمناظرة

The Aesthetic Transformation in Andalusian Writing Between the Epistle and the Debate

د. ليلى نجاة جهاد أحمد: مدرس دكتور في قسم اللغة العربية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة كركوك، العراق.

Dr. Layla Najat Jihad Ahmed: Assistant Doctor, Department of Arabic Language, Faculty of Education for Humanities, University of Kirkuk, Iraq.

Email: Layla.najat@uokirkuk.edu.iq

Doi: https://doi.org/10.56989/benkj.v6i2.1763

تاريخ الاستلام: 2025-12-22 تاريخ القبول: 2026-01-12 تاريخ النشر 2026-02-01

المستخلص:

يتناول هذا البحث التحوّل الجمالي في الكتابة الأندلسية من خلال تتبّع مظاهره الفنية والأسلوبية في فنّي الرسالة والمناظرة، بوصفهما من أبرز الأجناس النثرية التي ازدهرت في الأندلس. ويسعى البحث إلى الكشف عن الكيفية التي انتقلت بها الكتابة الأندلسية من الوظيفة التواصلية المباشرة إلى أفق جمالي يقوم على الزخرفة اللفظية، والتكثيف البلاغي، والعناية بالإيقاع والصورة، متأثرة بالبيئة الحضارية والثقافية الخاصة بالأندلس. كما يبرز البحث الخصائص الأسلوبية التي ميّزت الرسائل الأندلسية، وما اتسمت به من نزوع فني واضح، مقابل الطابع الحجاجي والمنطقي للمناظرات، التي لم تخْلُ بدورها من بعد جمالي تجلّى في حسن العرض وقوة التعبير. ويخلص البحث إلى أن التفاعل بين الرسالة والمناظرة أسهم في إغناء النثر الأندلسي، وأسّس لتحوّل جمالي جعل من الكتابة مجالًا للإبداع الفني إلى جانب وظيفتها الفكرية والإقناعية.

الكلمات المفتاحية: الكتابة الأندلسية، التحوّل الجمالي، الرسالة، المناظرة، النثر الأندلسي، الأسلوب.

Abstract:

This study addresses the aesthetic transformation in Andalusian writing by tracing its artistic and stylistic manifestations in the genres of letters and debates, considered among the most prominent prose forms that flourished in al-Andalus. The research aims to explore how Andalusian writing transitioned from a direct communicative function to an aesthetic horizon characterized by verbal ornamentation, rhetorical condensation, and careful attention to rhythm and imagery, influenced by the specific cultural and civilizational context of al-Andalus. The study also highlights the stylistic features that distinguished Andalusian letters, marked by a clear artistic tendency, in contrast to the argumentative and logical nature of debates, which nevertheless did not lack aesthetic dimensions, manifested in elegant presentation and expressive force. The research concludes that the interaction between letters and debates contributed to enriching Andalusian prose and laid the foundations for an aesthetic transformation that rendered writing a field for artistic creativity alongside its intellectual and persuasive functions.

Keywords: Andalusian Writing, Aesthetic Transformation, Epistle, Debate, Andalusian Prose, Style.

المقدمة:

يحظى النثر الأندلسي بمكانة متميّزة في تاريخ الأدب العربي، لما اتّسم به من ثراء فني وتنوّع أسلوبي يعكس خصوصية التجربة الحضارية في الأندلس. فقد نشأ هذا النثر في سياق ثقافي واجتماعي معقّد، تداخلت فيه المؤثرات العربية الإسلامية مع روافد ثقافية وفكرية متعدّدة، الأمر الذي أسهم في بلورة أشكال تعبيرية نثرية تجاوزت الوظيفة الإبلاغية المباشرة إلى آفاق جمالية وفنية رحبة. وتُعدّ الرسالة والمناظرة من أبرز هذه الأشكال، إذ شكّلتا فضاءً تعبيريًا استوعب التحوّلات الأسلوبية والجمالية التي عرفها النثر الأندلسي.

وقد شهدت الرسالة والمناظرة في الأندلس تحوّلًا ملحوظًا على المستوى الجمالي، حيث لم تعودا مجرّد وسيلتين للتواصل أو الجدل، بل غدتا نصّين أدبيين مشبعين بالقيم البلاغية والفنية. ويكشف هذا التحوّل عن وعي متقدّم بطبيعة النثر وقدرته على الجمع بين الفكر والجمال، وهو ما يجعل دراسة التحوّل الجمالي في هذين الفنّين مدخلًا مهمًا لفهم تطوّر النثر الأندلسي وخصوصيته الفنية.

مشكلة البحث:

تتمحور مشكلة هذا البحث حول التساؤل الرئيس الآتي: **كيف تجلّى التحوّل الجمالي في الكتابة الأندلسية بين فنّي الرسالة والمناظرة، وما أبعاده الأسلوبية والدلالية؟**

ويتفرّع عن هذا السؤال الرئيس عدد من الأسئلة الفرعية، من أبرزها:

- ما مفهوم الجمالية في الكتابة الأدبية، وكيف تشكّل في النقد العربي القديم والحديث؟
- ما العوامل التاريخية والثقافية التي أسهمت في نشأة الرسالة والمناظرة في الأندلس؟
- ما أبرز الملامح الجمالية والأسلوبية التي ميّزت الرسالة الأندلسية؟
- كيف تجلّت الجماليات الأسلوبية في المناظرة الأندلسية؟
- إلى أي حدّ أسهم التداخل بين الرسالة والمناظرة في إثراء النثر الأندلسي؟

منهج البحث:

اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي بوصفه المنهج الأنسب لدراسة الظواهر الأسلوبية والجمالية في النصوص الأدبية، حيث تمّ وصف الظواهر الفنية في الرسالة والمناظرة الأندلسيتين، ثم تحليلها والكشف عن دلالاتها الجمالية. كما استعان البحث بـ المنهج المقارن عند الحاجة، من خلال المقارنة بين خصائص الرسالة والمناظرة، وإبراز أوجه التشابه والاختلاف بينهما. واعتمدت

الدراسة كذلك على المنهج التاريخي في تتبّع نشأة الفنّين وتطوّرهما في السياق الأندلسي، بما يخدم التحليل الجمالي ولا يطغى عليه.

أهمية البحث:

تنبع أهمية هذا البحث من كونه يسعى إلى تسليط الضوء على جانب جمالي دقيق في النثر الأندلسي، يتمثّل في دراسة التحوّل الأسلوبي والفني في فنّي الرسالة والمناظرة. كما تكمن أهميته في إسهامه في تعميق الفهم النقدي للنثر الأندلسي، الذي غالبًا ما طغت عليه الدراسات التاريخية أو الموضوعاتية على حساب التحليل الجمالي. ويُضاف إلى ذلك أنّ البحث يبرز قيمة الأسلوب بوصفه عنصرًا بنيويًا في بناء النص النثري، ويكشف عن مرونة الأجناس النثرية وقدرتها على التداخل والتطوّر. ومن ثمّ، فإن هذه الدراسة تمثّل إضافة نوعية إلى الدراسات الأدبية التي تعنى بجماليات النثر العربي وتحولاته.

هيكلية البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يُقسم إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، على النحو الآتي:

- المقدمة.
- المبحث الأول: الإطار المفاهيمي والتاريخي للكتابة الأندلسية.
- المبحث الثاني: التحوّل الجمالي في الرسالة والمناظرة الأندلسيتين.
- المبحث الثالث: أبعاد التحوّل الجمالي بين الرسالة والمناظرة.
- الخاتمة.

المبحث الأول: الإطار المفاهيمي والتاريخي للكتابة الأندلسية

لم تتشكّل الكتابة الأندلسية بوصفها مجرّد امتداد للكتابة المشرقية، بل نشأت في سياق حضاري وثقافي مغاير، أفرز أنماطًا تعبيرية وأساليب فنية ذات خصوصية واضحة. فقد مثّلت الأندلس فضاءً حضاريًا متعدّد الأعراق والثقافات، تداخل فيه العربي بالبربري، والمسلم بالمسيحي واليهودي، والعقل الفقهي بالفلسفة، واللغة العربية باللغات الرومانسية واللاتينية. وقد انعكس هذا التعدّد على النتاج الأدبي، ولا سيما النثري منه، الذي غدا مجالًا رحبًا لتجلّي التحوّلات الجمالية والأسلوبية.

وتُعدّ الرسالة والمناظرة من أبرز الفنون النثرية التي شهدت هذا التحوّل، إذ انتقلتا من وظيفتهما الإبلاغية والحجاجية إلى فضاء جمالي يتوسّل بالبلاغة والتصوير والخيال، ويمنح الذات الكاتبة حضورًا لافتًا. غير أن فهم هذا التحوّل يقتضي أولًا الوقوف عند الإطار المفاهيمي لمفهوم الجمالية

في الكتابة الأدبية، ثم تتبّع الجذور التاريخية لنشأة الرسالة والمناظرة في الأندلس، قبل الانتقال إلى رصد الخصائص الأسلوبية العامة التي ميّزت النثر الأندلسي وعبّدت الطريق لتحوّلاته اللاحقة.

المطلب الأول: مفهوم الجمالية في الكتابة الأدبية

يُعدّ مفهوم الجمالية من المفاهيم المحورية في الدراسات الأدبية، إذ يرتبط ارتباطًا وثيقًا بطبيعة الأدب بوصفه فعلًا لغويًا يتجاوز حدود الإبلاغ والتواصل اليومي إلى إنتاج المتعة والتأثير وبناء الدلالة. غير أنّ هذا المفهوم لم يُصَغ في النقد العربي القديم ضمن إطار فلسفي مستقل، كما هو الحال في الفكر الجمالي الحديث، بل تبلور بصورة ضمنية عبر انشغال النقاد بمباحث البلاغة والفصاحة وحسن البيان. فقد انطلقت الرؤية النقدية القديمة من اعتبار النص الأدبي خطابًا مؤثّرًا، تتحدّد قيمته الجمالية بقدرته على شدّ المتلقي وإقناعه وإمتاعه، وهو ما جعل الجمال عنصرًا وظيفيًا وبنيويًا في آن واحد، لا مجرّد مظهر شكلي منفصل عن المعنى (عباس، 1997، صفحة 45).

وقد عبّر الجاحظ عن هذا الوعي الجمالي المبكر حين أكّد أن المعاني في ذاتها ليست معيار التفاضل بين النصوص، لأنها مشتركة بين الناس، وإنما يكمن التميّز في طريقة عرض هذه المعاني وصياغتها وتأليفها. فالكلام الجميل، في نظره، هو ما حَسُن سبكه، وتناسق نظمه، ووافق مقتضى الحال، واستطاع أن يحدث أثرًا في نفس السامع أو القارئ. ويكشف هذا التصور عن إدراك مبكر للعلاقة العضوية بين الجمال والأسلوب، حيث لا يتحقّق الجمال إلا عبر البنية اللغوية التي تتجسّد فيها الفكرة، وهو ما أسّس لوعي نقدي يرى في الأسلوب حاملًا أساسيًا للقيمة الجمالية (الجاحظ، 2002، صفحة 72).

ومع تطوّر الدرس البلاغي، بلغ التفكير الجمالي في النقد العربي ذروته مع عبد القاهر الجرجاني، الذي أحدث تحوّلًا نوعيًا في فهم الجمال الأدبي من خلال نظريته في النظم. فقد رفض الجرجاني اختزال الجمالية في اللفظ المفرد أو المحسّنات البديعية، وربطها بالعلاقات التي تنشأ بين الألفاظ والمعاني داخل السياق. ووفق هذا التصور، تتولّد الجمالية من انسجام التراكيب، ودقّة الترتيب، والتناسب بين أجزاء الكلام، بحيث يغدو النص بنية متكاملة تُنتج جمالها من داخلها، لا من عناصر خارجية مضافة إليها (الجرجاني، 2004، صفحة 45).

ومع انتقال النقد الأدبي إلى آفاقه الحديثة، اتّسع مفهوم الجمالية وتحرّر من الإطار البلاغي التقليدي، ليصبح مرتبطًا بتجربة التلقّي وبالدور الذي يؤديه القارئ في بناء المعنى. فقد نظر النقاد المحدثون إلى الجمالية بوصفها نتيجة لتفاعل معقّد بين النص والمتلقي، تقوم على خلق أفق توقّع ثم خلخلته، وإنتاج توتر دلالي بين المألوف وغير المألوف. ولم يعد الجمال مرادفًا للوضوح والانسجام وحدهما، بل أصبح يشمل الانزياح، والتعدّد الدلالي، والقدرة على إثارة التأويل، وهو ما جعل النص الأدبي بنية مفتوحة قابلة لقراءات متعدّدة (تودوروف، 2003، صفحة 21)، ويتجلى هذا الفهم الحديث

للجمالية القائم على تفاعل النص والقارئ في مفهوم «المسافة الجمالية» الذي تبلور في نظرية التلقي، والذي يُقصد به ذلك الانزياح الذي يخلقه النص حين يخالف أفق انتظار المتلقي المُشكّل من مخزونه الثقافي السابق، ليقدم له جديداً مفاجئاً يُحفّز تأويله وينقله إلى فضاءات دلالية أعمق (ميلاد عادل جمال، 2024، صفحة 242).

وفي هذا السياق، برز الأسلوب بوصفه العنصر المركزي الذي تتجسّد من خلاله الجمالية في الكتابة الأدبية. فالأسلوب، في النقد الحديث، ليس مجرّد اختيار لغوي أو تزيين شكلي، بل هو تعبير عن رؤية الكاتب للعالم، يتجلّى في طريقة بناء الجملة، وتنظيم الأفكار، وتوظيف الصور، والإيقاع الداخلي للنص. ومن ثمّ، فإن العلاقة بين الجمال والأسلوب علاقة تلازم لا انفصام لها، إذ لا يمكن تصور جمال أدبي خارج الأسلوب، كما لا يُقاس الأسلوب إلا بقدر ما يحققه من أثر جمالي ودلالي (المسدي، 1993، صفحة 55).

وانطلاقًا من هذه الرؤية، يمكن القول إن الجمالية في الكتابة الأدبية، قديمها وحديثها، تقوم على تحويل الفكرة إلى تجربة لغوية مؤثّرة، تتجاوز الإبلاغ المباشر إلى أفق الفن. وهو ما يفسّر تطوّر النثر العربي، ولا سيما في الأندلس، نحو أشكال تعبيرية أكثر وعيًا بالأسلوب وبطاقته الجمالية. فقد أصبحت الرسالة والمناظرة فضاءين يتجلّى فيهما هذا التداخل بين الجمال والأسلوب، حيث تُقدَّم الفكرة أو الحجة ضمن بناء لغوي مشحون بالتصوير والانسجام والإيقاع، بما يجعل من النص تجربة جمالية وفكرية في آن واحد (ضيف، تاريخ الأدب العربي/ عصر الدول والإمارات– الأندلس، 2004، صفحة 180).

المطلب الثاني: نشأة الرسالة والمناظرة في الأندلس

ارتبطت نشأة فنّي الرسالة والمناظرة في الأندلس بالسياق الحضاري والثقافي الذي تشكّل عقب الفتح الإسلامي، حيث انتقلت إلى الأندلس تقاليد الكتابة المشرقية مصحوبة بالموروث الإداري والعلمي والبلاغي الذي عرفه المشرق في العصرين الأموي والعباسي. وقد كانت الرسالة، في بداياتها، وثيقة الصلة بالديوان والسلطة، تؤدي وظيفة إدارية وسياسية واضحة، غير أنّها لم تلبث أن تجاوزت هذا الإطار الوظيفي لتغدو فضاءً أدبيًا يتّسع للتعبير الذاتي، والوصف، والتأنّق الأسلوبي، متأثرة بذوق أندلسي خاص يميل إلى الرقة والاختزال والتصوير (ضيف، 2004، صفحة 160).

يرى شوقي ضيف أن ما عرفته الأندلس من استقرار سياسي نسبي في عصر الدولة الأموية أسهم في تهيئة الظروف الملائمة لازدهار النثر الفني، ولا سيما فن الرسائل، إذ برز كتّاب امتلكوا ثقافة لغوية وبلاغية واسعة، واستفادوا من التراث المشرقي في أساليب التعبير. ومع تطور الحياة الأدبية، أخذت الرسالة الأندلسية تتحرر تدريجيًا من طابعها الديواني الرسمي، وتتجه نحو صيغة

أدبية أكثر مرونة، خاصة في الرسائل الإخوانية والوصفية، حيث أُتيح للكاتب التعبير عن مشاعره وتجربته الذاتية، مما أضفى على هذا الفن بعدًا جماليًا متناميًا (ضيف، الصفحات 392–394).

وفي هذا السياق، برز عدد من الكتّاب الذين أسهموا في ترسيخ فن الرسالة بوصفه جنسًا أدبيًا قائمًا بذاته، من أبرزهم ابن عبد ربه، الذي جمع في نثره بين الجزالة والرشاقة، ثم ابن حزم، الذي ارتقت الرسالة لديه إلى مستوى فكري وجدلي عميق، قبل أن تبلغ ذروتها الفنية مع لسان الدين بن الخطيب، حيث امتزجت الرسالة بالتأمل الفلسفي والوصف الفني والسرد، وأصبحت نصًا أدبيًا متعدد الأبعاد، يجمع بين الوظيفة والجمال (ابن الخطيب، 2001، صفحة 45).

أما فن المناظرة، فقد نشأ في الأندلس في سياق علمي وفكري اتّسم بالحيوية والتنوّع، نتيجة التعدّد المذهبي والديني والثقافي الذي ميّز المجتمع الأندلسي. فقد شكّلت مجالس العلم والفقه والفلسفة فضاءً خصبًا للحوار والجدل، حيث كان العلماء يتناظرون لإثبات الرأي ودحض الخصم، مستندين إلى الحجة والبرهان. غير أنّ هذه المناظرات لم تظل حبيسة الطابع العلمي الجاف، بل بدأت تكتسب تدريجيًا بعدًا أدبيًا، بفعل العناية باللغة والأسلوب، وتوظيف البلاغة في عرض الأفكار والدفاع عنها (الجابري، 2008، صفحة 112).

ومع تطوّر هذا الفن، أصبحت المناظرة الأندلسية نصًا لغويًا مشحونًا بالحيوية والحركة، يعتمد على الحوار والسرد، ويستثمر عناصر التشويق والتدرّج في بناء الحجة. وقد أسهم هذا التطوّر في تحويل المناظرة من مجرّد ممارسة علمية إلى خطاب أدبي يحمل سمات جمالية واضحة، حيث لم تعد الغاية مقتصرة على الانتصار للرأي، بل امتدّت إلى إمتاع المتلقي وإقناعه عبر أسلوب فني يجمع بين العقل والخيال (الواد، 2003، صفحة 87).

وقد أدّى هذا المسار التطوّري إلى تداخل ملحوظ بين فنّي الرسالة والمناظرة في الأندلس، إذ استعارت الرسالة من المناظرة بنيتها الحجاجية وأسلوبها الجدلي، في حين استعارت المناظرة من الرسالة عنايتها بالوصف والتصوير وحضور الذات الكاتبة. ونتيجة لهذا التفاعل، ظهرت نصوص يصعب تصنيفها تصنيفًا صارمًا ضمن أحد الفنّين، لما تحمله من سمات مشتركة تجمع بين الإقناع والجمال، والحوار والسرد، والوظيفة والفن (عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، 2006، صفحة 233).

ويكشف هذا التداخل عن وعي أندلسي مبكر بقدرة النثر على احتضان أشكال تعبيرية متعدّدة، وعن نزوع واضح نحو تحويل الخطاب النثري إلى تجربة جمالية متكاملة. وقد شكّلت نشأة الرسالة والمناظرة، بهذا المعنى، مرحلة تأسيسية مهمّة مهّدت للتحوّل الجمالي الذي عرفه النثر الأندلسي لاحقًا، حيث لم يعد النص مجرّد وسيلة للتواصل أو الجدل، بل أصبح فضاءً فنيًا تتجلّى فيه مهارة الكاتب ورؤيته الجمالية للعالم.

المطلب الثالث: الخصائص الأسلوبية العامة للكتابة الأندلسية

تتّسم الكتابة الأندلسية بخصوصية أسلوبية واضحة نابعة من السياق الحضاري والثقافي الذي تشكّلت فيه، إذ لم تكن مجرّد امتداد آلي للكتابة المشرقية، بل أعادت تشكيل اللغة النثرية بما يتلاءم مع ذائقة أندلسية ميّالة إلى الرقة والانسجام والتكثيف. فقد أولى الكتّاب الأندلسيون عناية فائقة بالصياغة اللغوية، فاختاروا ألفاظًا لينة قريبة من الحسّ، وبنوا جملًا متوازنة تتسم بخفّة الإيقاع ووضوح التركيب، وهو ما منح النص النثري طابعًا موسيقيًا داخليًا، وجعله أكثر قدرة على التأثير في المتلقي (ضيف، تاريخ الأدب العربي/ عصر الدول والإمارات– الأندلس، 2004، صفحة 170).

وقد ارتبط هذا الميل الأسلوبي بنزوع واضح إلى الوصف والتصوير، حيث تحوّلت اللغة في النثر الأندلسي إلى أداة لتجسيد المعاني والأفكار في صور حسّية نابضة بالحياة. ولم يقتصر الوصف على النصوص ذات الطابع الفني الخالص، بل تسلّل إلى الرسائل والمناظرات، فجعل الفكرة المجردة مشهدًا لغويًا متحرّكًا، يستدعي عناصر الطبيعة والعمارة والمجالس، ويعكس تفاعل الكاتب مع بيئته المكانية والاجتماعية (عباس، 2006، صفحة 210).

كما تميّزت الكتابة الأندلسية بحضور لافت للذات الكاتبة، حيث لم يتوارَ الكاتب خلف الخطاب كما في كثير من النصوص الرسمية المشرقية، بل عبّر عن مشاعره ورؤيته الخاصة للعالم، سواء في الرسائل الإخوانية أو في المناظرات التي اتّخذت طابعًا حواريًا حيويًا. وقد أسهم هذا الحضور الذاتي في إضفاء بعد إنساني على النص، وجعل الخطاب أكثر حميمية وقربًا من المتلقي، وهو ما يعزّز قيمته الجمالية والدلالية في آن واحد (عتيق، 1995، صفحة 95).

وإلى جانب ذلك، اتّسم النثر الأندلسي بتوازن دقيق بين الوظيفة والجمال، إذ لم يتخلَّ عن بعده الحجاجي أو الإبلاغي، خاصة في الرسائل الرسمية والمناظرات الفكرية، غير أنّه أعاد تقديم هذا البعد ضمن بناء فني مشغول بعناية. فالحجة لا تُعرض عرضًا مباشرًا، بل تُبنى تدريجيًا عبر أسلوب حواري أو وصفي، يوظّف البلاغة والتشخيص والإيقاع، بما يجعل من الإقناع تجربة جمالية لا مجرّد عملية عقلية جافة (الواد، 2003، صفحة 90).

كما يُلاحظ في الكتابة الأندلسية ميل واضح إلى الاختزال والتكثيف، حيث تُحمّل الجملة الواحدة أكثر من دلالة، ويُراهن على ذكاء المتلقي وقدرته على التأويل. وقد أسهم هذا الأسلوب في إضفاء عمق دلالي على النص، وجعله قابلاً لقراءات متعدّدة، وهو ما ينسجم مع التصوّرات الحديثة للجمالية بوصفها انفتاحًا على المعنى لا انغلاقًا عليه (المسدي، 1993، صفحة 65).

وتكشف هذه الخصائص مجتمعة عن وعي أسلوبي وجمالي متقدّم لدى الكتّاب الأندلسيين، الذين أدركوا قدرة النثر على استيعاب التجربة الإنسانية والفكرية في آن واحد. فقد أصبحت الكتابة

فضاءً يتداخل فيه العقل والخيال، والحجة والتصوير، والوظيفة والفن، وهو ما مهّد للتحوّل الجمالي الذي عرفته الرسالة والمناظرة في الأندلس، وجعل منهما نصّين أدبيين مشبعين بالقيم الجمالية، لا مجرّد أدوات تواصل أو جدل.

المبحث الثاني: التحوّل الجمالي في الرسالة والمناظرة الأندلسيتين

شهد النثر الأندلسي، ولا سيما في فنّي الرسالة والمناظرة، تحوّلًا جماليًا ملحوظًا لم يكن وليد الصدفة، بل نتيجة مسار طويل من التفاعل بين الوظيفة الفكرية والتعبير الفني. فقد انتقلت الرسالة والمناظرة من كونها وسيلتين للإبلاغ أو الجدل إلى نصّين أدبيين مشبعين بالتصوير والبلاغة والحسّ الجمالي، وهو ما يعكس تطوّر الوعي الأسلوبي لدى الكتّاب الأندلسيين. ويُعد هذا التحوّل تعبيرًا عن نضج التجربة النثرية في الأندلس، حيث لم يعد الكاتب يكتفي بإيصال الفكرة، بل أصبح معنيًا بكيفية صياغتها وبالأثر الذي تتركه في المتلقي، وهو ما جعل من الجمالية عنصرًا بنيويًا في الرسالة والمناظرة على السواء (عباس، دراسات في الأدب الأندلسي، 1968م، صفحة 170).

المطلب الأول: الجماليات الأسلوبية في الرسالة الأندلسية

عرفت الرسالة الأندلسية تحوّلًا جماليًا واضحًا تجلّى في انتقالها من الطابع الوظيفي المباشر إلى خطاب أدبي مشغول بالأسلوب والصياغة. فبعد أن كانت الرسالة، في مراحلها الأولى، وثيقة إدارية أو وسيلة تواصل رسمية، أصبحت نصًا أدبيًا قائمًا بذاته، ينهض على العناية باللفظ، وتناسق التراكيب، وحسن الانتقال بين المعاني. وقد أسهم هذا التحوّل في جعل الرسالة فضاءً للتجريب الأسلوبي، تتجلّى فيه مهارة الكاتب وقدرته على تطويع اللغة لخدمة المعنى والجمال في آن واحد (ضيف، تاريخ الأدب العربي/ عصر الدول والإمارات– الأندلس، 2004، صفحة 190).

ويظهر البعد الجمالي في الرسالة الأندلسية من خلال العناية بالإيقاع الداخلي للنص، حيث تميل الجمل إلى التوازن، ويُوظَّف السجع توظيفًا غير متكلّف، بما يضفي على الرسالة موسيقى خفيفة لا تطغى على المعنى. ولم يكن هذا الإيقاع غاية في ذاته، بل وسيلة لتعزيز الأثر النفسي للنص، وجعل المتلقي أكثر استعدادًا لتقبّل الفكرة أو الموقف الذي يطرحه الكاتب. وقد تميّزت الرسائل الأندلسية، بخلاف كثير من الرسائل المشرقية، بابتعادها النسبي عن التعقيد اللفظي، وميلها إلى الوضوح الممزوج بالرقة (عتيق، 1995، صفحة 110).

كما تجلّى التحوّل الجمالي في حضور الوصف والتصوير داخل الرسالة، حيث لم تعد الفكرة تُعرض عرضًا مباشرًا، بل تُصاغ ضمن مشاهد لغوية تستحضر الطبيعة أو المجلس أو الحالة النفسية للكاتب. وقد أسهم هذا التوجّه في تحويل الرسالة إلى نص قريب من السرد، يزاوج بين الإخبار والتخييل، ويمنح اللغة قدرة على تجسيد المعاني وتجريبها حسّيًا. ويُلاحظ هذا بوضوح في الرسائل

الإخوانية والوصفية التي كتبها أعلام مثل ابن حزم ولسان الدين بن الخطيب، حيث تتحوّل الرسالة إلى مساحة للتأمل والتصوير والبوح (الأندلسي، 2016، صفحة 45).

ويبرز التحوّل الجمالي كذلك في ازدياد حضور الذات الكاتبة داخل الرسالة الأندلسية، إذ لم يعد الكاتب يكتفي بدور الناقل أو المبلّغ، بل أصبح فاعلًا داخل النص، يعبّر عن مشاعره ومواقفه، ويكشف عن رؤيته للعالم. وقد أسهم هذا الحضور الذاتي في إضفاء طابع إنساني على الرسالة، وجعلها أكثر حميمية وتأثيرًا، كما عزّز بعدها الجمالي من خلال ربط الأسلوب بالتجربة الشخصية للكاتب (ابن الخطيب، 2001، صفحة 60).

وتكشف هذه السمات مجتمعة عن انتقال الرسالة الأندلسية من خطاب وظيفي إلى نص أدبي مكتمل العناصر، يقوم على التوازن بين الفكرة والجمال، وبين الإقناع والإمتاع. وقد شكّل هذا التحوّل أحد أبرز ملامح تطوّر النثر الأندلسي، ومهّد لتقاطع الرسالة مع المناظرة في المجال الجمالي، وهو ما سيتّضح بصورة أعمق عند تناول الجماليات الأسلوبية في المناظرة الأندلسية.

المطلب الثاني: الجماليات الأسلوبية في المناظرة الأندلسية

شهدت المناظرة الأندلسية تحوّلًا جماليًا ملحوظًا نقلها من مجال الجدل العلمي الصرف إلى فضاء أدبي تتداخل فيه الحجة بالعناصر الفنية. ففي بداياتها، ارتبطت المناظرة بإثبات الرأي ودحض الخصم اعتمادًا على البرهان العقلي والنقل، غير أنّ تطوّر الذائقة الأدبية في الأندلس، وازدهار العلوم والآداب، أسهما في إكساب هذا الفن بعدًا جماليًا واضحًا، حيث لم يعد المتناظر معنيًا بصحة الحجة وحدها، بل بطريقة عرضها، وقدرتها على الإقناع والتأثير في المتلقي (الواد، 2003، صفحة 85).

وتجلّى هذا التحوّل الجمالي في اعتماد المناظرة الأندلسية على الحوار بوصفه آلية بنائية، حيث تُعرض الأفكار في سياق تفاعلي متحرّك، تتعاقب فيه الأصوات وتتنوع زوايا النظر. وقد أضفى هذا الأسلوب الحواري حيوية خاصة على النص، وجعله أقرب إلى المشهد السردي منه إلى التقرير العلمي الجاف. كما أتاح الحوار للكاتب أن يوظّف أدوات بلاغية متعددة، مثل الاستفهام والتعجب والمقابلة، بما يعزّز البعد الجمالي ويكثّف الدلالة (الجابري، 2008، صفحة 120).

كما برزت الجمالية الأسلوبية في المناظرة الأندلسية من خلال العناية باللغة وصياغة العبارة، إذ مال الكتّاب إلى انتقاء ألفاظ دقيقة موحية، وتراكيب متوازنة تخدم بناء الحجة دون إخلال بانسجام النص. ولم يكن السجع والإيقاع غاية مستقلة، بل وُظِّفا توظيفًا معتدلًا يضفي على الخطاب نغمة موسيقية خفيفة، تسهم في شدّ انتباه المتلقي، وتمنح الحجة قوة تأثير إضافية (عتيق، 1995، صفحة 130).

ويُلاحظ كذلك أنّ المناظرة الأندلسية لم تخلُ من عناصر تصويرية وتشخيصية، حيث لجأ بعض الكتّاب إلى تجسيد الأفكار والمعاني في صور حسية، أو إلى تشخيص المفاهيم المجردة، فيتحوّل الجدل إلى مشهد نابض بالحركة. وقد أسهم هذا التوجّه في تقريب الأفكار المعقّدة إلى ذهن القارئ، وفي جعل المناظرة نصًا ممتعًا إلى جانب كونه خطابًا عقليًا (عباس، 2006، صفحة 245).

ويبرز التحوّل الجمالي في المناظرة أيضًا من خلال حضور الذات الكاتبة، إذ لم يعد الكاتب محايدًا تمامًا، بل أصبح صوته واضحًا في اختيار الحجج، وطريقة عرضها، ونبرة الخطاب. وقد أسهم هذا الحضور في إضفاء طابع أدبي على المناظرة، وجعلها مجالًا للتعبير عن الموقف الفكري والرؤية الشخصية، لا مجرّد ممارسة جدلية محايدة (ضيف، 2004، صفحة 205).

يشكّل الانزياح نحو البنية السردية أحد أبرز تجليات التحوّل الجمالي في النثر الأندلسي، ولا سيما في فن المناظرة الذي اكتسب أبعاداً درامية وحوارية متطورة. فقد تخلّت المناظرة الأندلسية عن الخطاب الجدلي المباشر، لتصبح خطاباً مركّباً يستثمر آليات "المنظور السردي" وتعدّد "الرؤى" وتبادل الأصوات. وهذا التحوّل منح الكاتب قدرة على الهيمنة على عالمه الحكائي، وتقديم الحجّة ضمن سياق درامي حيوي، يجذب المتلقّي ويؤثّر فيه من خلال تشكيل عوالم نصيّة قائمة على التوتّر والتشويق (محمد، 2021، صفحة 2)، وقد انعكس هذا التوجّه السردي حتى في الرسائل الأندلسية التي أضفت على الخطاب الوصفي والإخباري طابعاً حكائياً، يعتمد على تسلسل الأحداث وبناء الشخصيات، مما وسّع من أفق التلقي وأضفى على النصّ النثري بعداً جمالياً جديداً، يقوم على فنّ الحكي وإدارة الحوار.

المطلب الثالث: نماذج تطبيقية مختارة

تتجلّى ملامح التحوّل الجمالي في الرسالة الأندلسية بوضوح في نصوص عدد من أعلام النثر، حيث تتداخل الوظيفة الفكرية مع الصياغة الفنية. ففي رسائل ابن حزم، على سبيل المثال، تتجاوز الرسالة حدود الإبلاغ إلى فضاء تأملي وجدلي مشحون بالعاطفة، إذ يُصاغ الرأي في لغة مشبعة بالتصوير والبوح، وتتحوّل الحجة إلى تجربة إنسانية تعبّر عن موقف الكاتب ورؤيته للعالم. ويكشف هذا الأسلوب عن وعي جمالي يجعل من الرسالة نصًا أدبيًا متكاملًا، لا مجرّد وسيلة تواصل (الأندلسي، 2016، صفحة 33).

وتبلغ الرسالة الأندلسية ذروة نضجها الجمالي في كتابات لسان الدين بن الخطيب، حيث تمتزج الرسالة بالسرد والوصف والتأمل الفلسفي. ففي نصوصه، تتحوّل الرسالة إلى فضاء رحب للتعبير عن الذات، وتُعرض الأفكار ضمن بناء لغوي محكم، يوظّف الصورة والإيقاع والتناص، بما يجعل النص أقرب إلى العمل الأدبي المركّب. ويعكس هذا التوجّه إدراكًا عميقًا لطاقة النثر وقدرته على استيعاب الفكر والجمال في آن واحد (ابن الخطيب، 2001، صفحة 75).

يظهر التحوّل الفني في فن المناظرة بوضوح في كتابات ابن حزم الجدلية، إذ تقوم مناظراته على بناء حِجاجي محكم يعتمد الدقة العقلية وتسلسل الاستدلال، غير أنّ هذا الطابع البرهاني لا يمنع حضور العناية بالأسلوب. فالحوار عنده يتدرّج في عرض الأفكار، والحجج تُقدَّم بصياغة واضحة ومؤثرة، وتُنتقى الألفاظ بعناية، مما يضفي على النص حيوية ويجعل القارئ متفاعلًا مع مسار الجدل، لا مجرد متلقٍّ للنتائج (الأندلسي، 1999، الصفحات 219–220).

وتكشف هذه النماذج التطبيقية عن أنّ التحوّل الجمالي في الرسالة والمناظرة الأندلسيتين لم يكن ظاهرة عارضة، بل مسارًا واعيًا ارتبط بتطوّر الذائقة الأدبية، وبتنامي الوعي بدور الأسلوب في بناء المعنى. فقد أصبحت الرسالة والمناظرة مجالين رحبين لتجلّي القيم الجمالية في النثر الأندلسي، وأسهمتا في ترسيخ مكانته بوصفه نثرًا فنيًا متقدّمًا، قادرًا على الجمع بين الفكر والإبداع.

المبحث الثالث: أبعاد التحوّل الجمالي بين الرسالة والمناظرة

يُعدّ التحوّل الجمالي بين الرسالة والمناظرة في النثر الأندلسي نتيجة طبيعية لتطوّر الوعي الأدبي والأسلوبي لدى الكتّاب، إذ لم يعد هذان الفنّان محكومين بوظيفتهما التقليدية في الإبلاغ أو الجدل، بل تحوّلا إلى فضاءين تعبيريين تتقاطع فيهما القيم الفكرية والجمالية. ويكشف النظر في أبعاد هذا التحوّل عن وعي أندلسي متقدّم بطبيعة النثر وقدرته على استيعاب التجربة الإنسانية والفكرية في آن واحد، وهو ما يستدعي الوقوف عند أوجه التشابه والاختلاف الجمالي بين الرسالة والمناظرة، ثم الكشف عن الدلالات العميقة التي يكتسبها هذا التحوّل في سياق النثر الأندلسي عامة.

المطلب الأول: أوجه التشابه الجمالي بين الرسالة والمناظرة

يُظهر التأمّل في فنّي الرسالة والمناظرة في النثر الأندلسي أن بينهما مساحات واسعة من التقاطع الجمالي، جعلت الحدود الفاصلة بينهما أقلّ حدّة مما كانت عليه في المراحل الأولى من تطوّر النثر العربي. فقد نشأ هذان الفنّان في سياق ثقافي واحد، وتطوّرا في بيئة أدبية مشتركة، الأمر الذي أسهم في تشابههما من حيث العناية بالصياغة اللغوية، وبناء الخطاب، واستثمار الأدوات البلاغية لتحقيق التأثير في المتلقي. ولم يعد النص في كلا الفنّين محكومًا بوظيفته المباشرة، بل أصبح كيانًا فنيًا يراهن على الإقناع والمتعة في آن واحد، وهو ما يعكس تحوّلًا جماليًا عميقًا في الوعي النثري الأندلسي (عباس، 2006، صفحة 260).

ويتمثّل أحد أبرز أوجه التشابه الجمالي بين الرسالة والمناظرة في العناية الفائقة بالأسلوب، حيث يحرص الكاتب في كلا الفنّين على انتقاء الألفاظ الدقيقة، وبناء التراكيب المتوازنة، وتحقيق الانسجام الداخلي للنص. فاللغة لم تعد أداة حيادية لنقل الفكرة، بل غدت عنصرًا أساسيًا في تشكيلها وتكثيف دلالتها. وقد أسهم هذا الوعي الأسلوبي في تحويل الرسالة والمناظرة إلى نصّين أدبيين يقوم

جمالهما على حسن التأليف، لا على الموضوع وحده، وهو ما ينسجم مع التصوّر البلاغي العربي الذي يربط القيمة الجمالية بالنظم والتركيب (الجرجاني، 2004، صفحة 50).

كما يشترك الفنّان في اعتماد البنية الحوارية، وإن اختلفت درجات حضورها. فالمناظرة تقوم في أصلها على الحوار الصريح بين أطراف متقابلة، في حين تستثمر الرسالة أسلوب المخاطبة والحوار الضمني، سواء عبر توجيه الخطاب إلى مخاطَب محدّد أو عبر استحضار صوت الآخر داخل النص. وقد أضفى هذا الطابع الحواري حيوية على الخطاب، وجعل القارئ شريكًا في تتبّع الأفكار وتفاعلها، كما أتاح للكاتب توظيف أساليب بلاغية متنوّعة، مثل الاستفهام والمقابلة والتكرار، بما يعزّز البعد الجمالي للنص (الواد، 2003، صفحة 102).

ويبرز التشابه الجمالي كذلك في حضور الذات الكاتبة داخل الرسالة والمناظرة، حيث لم يعد الكاتب يتوارى خلف خطاب موضوعي محايد، بل أصبح صوته واضحًا في اختيار الحجج، وتوجيه الحوار، وتلوين اللغة بنبرة شخصية. وقد أسهم هذا الحضور في إضفاء طابع إنساني على النص، وجعل الأسلوب انعكاسًا لتجربة الكاتب الفكرية والنفسية، لا مجرّد وسيلة للتواصل أو الجدل. ويُعد هذا الحضور الذاتي أحد مظاهر التحوّل الجمالي في النثر الأندلسي، إذ نقل الخطاب من مستوى التقرير إلى مستوى التعبير الفني (ضيف، 2004، صفحة 220).

ومن أوجه التشابه الجمالي أيضًا التوازن بين الحجاج والجمال في كلا الفنّين، حيث لا تُقدَّم الفكرة أو الحجة عرضًا مباشرًا، بل تُصاغ ضمن بناء لغوي مشغول بعناية، يستثمر الإيقاع والصورة والانتقال التدريجي بين المعاني. فالرسالة، رغم طابعها الأدبي، لا تخلو من بعد إقناعي، كما أنّ المناظرة، رغم طابعها الجدلي، لا تتجرّد من الحسّ الفني. وقد أسهم هذا التداخل في جعل النص أكثر قدرة على التأثير، إذ يجمع بين قوة الحجة وجاذبية الأسلوب (عتيق، 1995، صفحة 145).

يؤكد إحسان عباس أن التقارب بين الرسالة والمناظرة في الأندلس يعود إلى خضوعهما لمسار فني واحد نتج عن تطور الذائقة الأدبية وازدياد الوعي بقيمة الأسلوب في بناء النص. فلم يعد التفريق بين هذين الفنّين قائمًا على اختلاف الوظيفة فحسب، وإنما أصبح مرتبطًا بدرجات توظيف العناصر الجمالية داخل الخطاب النثري. ويعكس هذا التقارب مرونة النثر الأندلسي وقدرته على استيعاب صيغ تعبيرية متداخلة، كما يدلّ على نضج التجربة النثرية وتحولها من مجرد أداء وظيفي إلى ممارسة فنية واعية تعتني بالشكل بقدر عنايتها بالمضمون (عباس، 1968م، صفحة 183).

المطلب الثاني: أوجه الاختلاف الجمالي بين الرسالة والمناظرة

على الرغم من التقاطع الجمالي الواضح بين الرسالة والمناظرة في النثر الأندلسي، فإن كُلًّا منهما يحتفظ بخصوصية فنية تميّزه عن الآخر، نابعة من اختلاف الوظيفة الأصلية والبنية التعبيرية

لكل فن. فالرسالة نشأت في الأساس بوصفها خطابًا موجّهًا إلى مخاطَب معيّن، الأمر الذي جعل جماليتها تميل إلى الطابع الذاتي والوجداني، حيث تُصاغ الأفكار في إطار من البوح والتأمل، ويُعنى الكاتب بإبراز مشاعره ومواقفه الشخصية. أمّا المناظرة، فقد ارتبطت منذ نشأتها بالمواجهة الفكرية وإثبات الرأي، وهو ما جعل جماليتها أقرب إلى الطابع العقلي القائم على الحجاج والتدرّج المنطقي في عرض الأفكار (ضيف، 2004، صفحة 224).

يُبرز إحسان عباس الفارق الجمالي بين الرسالة والمناظرة في النثر الأندلسي من خلال طبيعة اللغة المستعملة في كلٍّ منهما؛ فالرسالة، ولا سيما الإخوانية والأدبية، تميل إلى أسلوب ليّن رقيق، يعتمد الإيحاء والتصوير، وتغلب عليه النزعة الوصفية والانفعالية، بما يحقّق نوعًا من الألفة والتواصل الوجداني بين الكاتب والمخاطَب. أمّا المناظرة، فتقوم لغتها على الدقة والوضوح، وتُصاغ ألفاظها بعناية تخدم البناء الحجاجي وتمنع اللبس، وإن ظلّ هذا الطابع العقلي لا يخلو من عناصر بلاغية تمنح النص مسحة فنية دون أن تطغى على غايته الجدلية (عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، 1978، صفحة 231).

كما يبرز الاختلاف الجمالي في البنية النصية لكل فن، فالرسالة أكثر انفتاحًا على السرد والوصف والاستطراد، وتسمح بتنوّع إيقاعي وتعبيري يواكب الحالة النفسية للكاتب. وقد تتداخل فيها مشاهد الطبيعة، ووصف المجالس، والتأملات الفكرية، في بناء لغوي مرن لا يقيّده مسار منطقي صارم. أمّا المناظرة، فتبقى محكومة ببنية حوارية جدلية تقوم على التعاقب بين الآراء، والتدرّج في عرض الحجج، والحرص على الترابط المنطقي، وهو ما يحدّ نسبيًا من حرية الاستطراد، ويجعل الجمال فيها نابعًا من إحكام البناء أكثر من تنوّع الأسلوب (الواد، 2003، صفحة 110).

ويُلاحظ كذلك أنّ حضور الذات الكاتبة يختلف من حيث الدرجة والوظيفة بين الرسالة والمناظرة. ففي الرسالة، تتقدّم الذات بوصفها محور الخطاب، وتصبح التجربة الشخصية مصدرًا أساسيًا للجمالية، حيث ينعكس مزاج الكاتب وثقافته ووجدانه في أسلوبه. أمّا في المناظرة، فرغم حضور الكاتب الواضح، فإن هذا الحضور يظل موجَّهًا بخدمة الحجة وإدارة الحوار، لا بالتعبير الحر عن الذات. ومن ثمّ، فإن الجمالية في المناظرة أقل ذاتية، وأكثر ارتباطًا بمهارة التنظيم والقدرة على الإقناع (عتيق، 1995، صفحة 150).

ومن أوجه الاختلاف الجمالي أيضًا اختلاف وظيفة الصورة البلاغية في الفنّين؛ ففي الرسالة تُوظَّف الصورة غالبًا للتعبير عن الحالة الشعورية، أو لتجميل الفكرة وإغنائها دلاليًا، بينما تُستثمر الصورة في المناظرة بوصفها أداة توضيحية أو إقناعية، تهدف إلى تقريب المعنى وتدعيم الحجة. وهذا الاختلاف في توظيف الصورة يعكس اختلاف الرؤية الجمالية لكل فن، حيث تقوم جمالية

الرسالة على الإيحاء والانفعال، في حين تقوم جمالية المناظرة على الإقناع والوضوح المدعوم بالتصوير (الجرجاني، 2004، صفحة 95).

وتكشف هذه الفروق الجمالية بين الرسالة والمناظرة عن أنّ التحوّل الجمالي في النثر الأندلسي لم يؤدِّ إلى طمس الفوارق بين الأجناس النثرية، بل أسهم في إعادة تعريفها فنيًا. فقد احتفظ كل فن بخصوصيته، مع انفتاحه على عناصر جمالية مشتركة، وهو ما منح النثر الأندلسي ثراءً وتنوّعًا، وجعل الرسالة والمناظرة مجالين متكاملين للتعبير عن الفكر والذات في آن واحد. ومن ثمّ، فإن أوجه الاختلاف الجمالي بين الفنّين تمثّل وجهًا آخر لنضج التجربة النثرية في الأندلس، ودليلًا على وعي الكتّاب بمرونة الأسلوب وقدرته على التكيّف مع اختلاف المقاصد التعبيرية (عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، 2006، صفحة 268).

المطلب الثالث: دلالات التحوّل الجمالي في النثر الأندلسي

يكشف التحوّل الجمالي الذي شهدته الرسالة والمناظرة في النثر الأندلسي عن دلالة أساسية تتمثّل في انتقال الكتابة النثرية من مرحلة يغلب عليها الطابع الوظيفي المباشر إلى مرحلة يتقدّم فيها الوعي الفني والأسلوبي. فلم يعد النثر مجرّد وسيلة للإبلاغ أو الجدل، بل أصبح مجالًا للتعبير الجمالي، تُستثمر فيه اللغة بوصفها أداة فنية قادرة على إنتاج المعنى وإثارة المتعة في آن واحد. ويعكس هذا التحوّل نضجًا واضحًا في الذائقة الأدبية الأندلسية، ووعيًا متزايدًا بقيمة الأسلوب في بناء النص الأدبي، وهو ما أسهم في الارتقاء بالنثر إلى مصاف الفنون التعبيرية الرفيعة (عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، 2006، صفحة 272).

وتتجلّى دلالة هذا التحوّل كذلك في إعادة تعريف العلاقة بين الفكر والجمال في الكتابة النثرية. فقد استطاع الكتّاب الأندلسيون أن يدمجوا الحجاج العقلي والتأمل الفكري ضمن بنية لغوية مشغولة بعناية، بحيث لا يُقدَّم الفكر في صورة تقريرية جافة، بل في قالب فني يجمع بين الإقناع والتأثير. ويُعد هذا التداخل بين العقل والجمال من أبرز سمات النثر الأندلسي، إذ أتاح للرسالة والمناظرة أن تتجاوزا حدودهما التقليدية، وتتحوّلا إلى نصوص أدبية تحمل بعدًا فكريًا وجماليًا في آن واحد (ضيف، 2004، صفحة 230).

يشير إحسان عباس إلى أن من مظاهر التطور الفني في النثر الأندلسي تراجع الفصل الصارم بين الأجناس النثرية، ولا سيما بين الرسالة والمناظرة، إذ أتاح الوعي الأسلوبي المتنامي تداخلًا واضحًا بينهما. فقد أفادت الرسالة من البناء الحجاجي الذي تقوم عليه المناظرة، في حين استفادت المناظرة من عناية الرسالة بالصياغة والأسلوب والتصوير وحضور الذات الكاتبة. وأسهم هذا التفاعل بين الأجناس في إغناء النثر الأندلسي ومنحه مرونة فنية أوسع، مكّنته من الجمع بين الحوار والسرد، وبين الطرح الفكري والصياغة الأدبية (عباس، 1968م، صفحة 174).

كما يعكس التحوّل الجمالي في النثر الأندلسي دلالة حضارية عميقة، إذ يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسياق الثقافي والاجتماعي الذي عاشته الأندلس. فقد أفرز التعدّد الثقافي والديني، وازدهار الحياة الفكرية، ورفاه العيش في فترات الاستقرار، حسًّا جماليًا مرهفًا انعكس في الكتابة الأدبية. وأصبحت الرسالة والمناظرة وسيلتين لتجسيد هذا الحس، والتعبير عن رؤية حضارية ترى في الأدب مجالًا لتمثيل التجربة الإنسانية والفكرية، لا مجرّد أداة نفعية محدودة الوظيفة (الجابري، 2008، صفحة 136).

ويشير هذا التحوّل كذلك إلى بروز الذات الكاتبة بوصفها عنصرًا فاعلًا في النص، حيث لم يعد الكاتب يكتفي بنقل الأفكار أو إدارة الجدل، بل أصبح يعكس في أسلوبه شخصيته وثقافته وموقفه من القضايا المطروحة. وقد أسهم هذا الحضور الذاتي في إضفاء طابع إنساني على النثر الأندلسي، وجعل النصوص أكثر قربًا من المتلقي، وأكثر قدرة على إثارة التفاعل والتأويل. ومن ثمّ، فإن التحوّل الجمالي يدلّ على انتقال النثر من خطاب جماعي محايد إلى خطاب يحمل بصمة فردية واضحة (عتيق، 1995، صفحة 156).

وتكشف هذه الدلالات مجتمعة عن أنّ التحوّل الجمالي في الرسالة والمناظرة لم يكن ظاهرة معزولة، بل جزءًا من مسار عام في تطوّر النثر العربي في الأندلس، مسارٍ قوامه الوعي بالأسلوب، والانفتاح على إمكانات اللغة، والقدرة على الجمع بين الوظيفة والفن. وقد أسهم هذا المسار في ترسيخ مكانة النثر الأندلسي بوصفه نثرًا متقدّمًا، استطاع أن يواكب تطوّر الفكر، ويعبّر عن خصوصية التجربة الحضارية الأندلسية، ويترك أثرًا واضحًا في تاريخ الأدب العربي (الواد، 2003، صفحة 116).

الخاتمة:

خلص هذا البحث إلى أن التحوّل الجمالي في الكتابة الأندلسية بين الرسالة والمناظرة يمثّل مظهرًا بارزًا من مظاهر نضج النثر الأندلسي وتطوّر وعيه الفني. فقد تجاوز هذان الفنّان وظيفتهما التقليدية في الإبلاغ والجدل، ليغدوا نصّين أدبيين مشبعين بالقيم الجمالية، تتجلّى في العناية بالأسلوب، وتوظيف البلاغة، وحضور الذات الكاتبة، والتوازن بين الإقناع والإمتاع.

وقد بيّنت الدراسة أن هذا التحوّل لم يكن معزولًا عن سياقه الحضاري والثقافي، بل ارتبط ارتباطًا وثيقًا بخصوصية التجربة الأندلسية التي أفرزت ذائقة أدبية ميّالة إلى الرقة والتصوير والانسجام. كما أظهرت المقارنة بين الرسالة والمناظرة أن التقاطع الجمالي بينهما لا يلغي خصوصية كل فن، بل يثري التجربة النثرية ويمنحها مرونة أسلوبية ودلالية.

وتؤكد نتائج البحث أن النثر الأندلسي، من خلال الرسالة والمناظرة، أسهم في توسيع أفق الكتابة النثرية العربية، وكرّس الجمال بوصفه عنصرًا بنيويًا في بناء الخطاب، الأمر الذي يجعل دراسة هذا التحوّل مدخلًا مهمًا لفهم تطوّر النثر العربي ووعيه الجمالي.

أولًا: النتائج

1. إبراز التحوّل الجمالي في الكتابة الأندلسية من البنية التقليدية للرسالة إلى الطابع الحِجاجي والحواري في المناظرة، بما يعكس تطورًا في الوعي الأسلوبي والتعبيري لدى الكتّاب الأندلسيين.
2. تداخل الأجناس الأدبية بين الرسالة والمناظرة، حيث لم تعد الرسالة محصورة في الإخبار أو التودّد، بل استوعبت عناصر الجدل والإقناع والزخرفة البلاغية.
3. تنامي البعد الجمالي في المناظرة الأندلسية، من خلال العناية بالتصوير البياني، والسجع، والمحسنات البديعية، مما جعلها نصًا أدبيًا لا يقل قيمة عن الأجناس النثرية الأخرى.
4. تأثر الكتابة الأندلسية بالسياق الثقافي والاجتماعي، حيث أسهم ازدهار المجالس العلمية والأدبية في تطوير أساليب التعبير الجدلي والجمالي معًا.
5. إسهام الكتّاب الأندلسيين في إغناء النثر العربي بأساليب جديدة تجمع بين الإقناع العقلي والمتعة الجمالية، مما منح الرسالة والمناظرة طابعًا فنيًا مميزًا.

ثانيًا: التوصيات

1. تشجيع الدراسات المقارنة بين الكتابة الأندلسية ونظيرتها في المشرق، للكشف عن خصوصية التحوّل الجمالي في الأندلس.
2. توسيع البحث في الأجناس النثرية الأخرى في الأدب الأندلسي، وربطها بالتحولات الجمالية والفكرية في تلك المرحلة.
3. الاهتمام بالتحليل البلاغي والأسلوبي لنصوص الرسائل والمناظرات، لما له من دور في إبراز جماليات النص الأندلسي.
4. إدراج نماذج من الرسائل والمناظرات الأندلسية في المناهج الجامعية، لتعريف الدارسين بقيمتها الأدبية والجمالية.
5. الاستفادة من المناهج النقدية الحديثة في دراسة النصوص الأندلسية، بما يسهم في إعادة قراءتها قراءة معاصرة تكشف أبعادها الفنية والدلالية.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن الخطيب، لسان الدين (2001). الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان. القاهرة: مكتبة الخانجي.
2. الأندلسي، ابن حزم (1999). الفصل في الملل والأهواء والنحل. تحقيق: محمد إبراهيم و عبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل.
3. الأندلسي، ابن حزم (2016). طوق الحمامة في الألفة والأُلّاف، تحقيق إحسان عباس. القاهرة: مؤسسة هنداوي.
4. الجابري، محمد عابد (2008). المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
5. الجاحظ (2002). البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، 4 مجلدات. القاهرة: مكتبة الخانجي.
6. الجرجاني، عبد القاهر (2004). دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي.
7. جمال، ميلاد عادل (2024). المسافة الجمالية في شخصية المرثي بين الواقع والشعر: دراسة في شعر الخنساء. مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد 19، العدد 2.
8. سليم، أحمد. (2023). الرَّبْطُ الحِجَاجِيّ بين اللُّغةِ والدِّلالَةِ فِي شِعْرِ الطليقِ المروانيّ. مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث, 3(1). https://doi.org/10.56989/benkj.v3i1.15
9. الشرع، ماجدة. (2022). النمطية الحياتية لسكان بلاد الأندلس الإسلامية خلال الفترة (92 – 897 هـ / 711 – 1492م). مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث, 2(2). https://doi.org/10.56989/benkj.v2i2.581
10. ضيف، شوقي. (د.ت) تاريخ الأدب العربي: الدول والإمارات – الأندلس، القاهرة: دار المعارف.
11. عباس، إحسان (1997). تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ، عمان: دار الشروق.
12. عباس، إحسان (1997). تاريخ النقد الأدبي عند العرب. بيروت: دار الثقافة.
13. عباس، إحسان. (1968) دراسات في الأدب الأندلسي، بيروت: دار الثقافة.

14. عباس، إحسان. (1997) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، عمان: دار الشروق.

15. عتيق، عبد العزيز (1995). الأدب العربي في الأندلس. القاهرة: دار النهضة العربية.

16. العضياني، سلطان & كنه، عثمان. (2023). الأغراض الشعرية التي توسع فيها الأندلسيون. مجلة ابن خلدون للدراسات والأبحاث, 3(10). https://doi.org/10.56989/benkj.v3i10.676

17. محمد، ألحان عبدالله (2021). المنظور السردي في الشعر القصصي: قراءة في نماذج من الشعر الجاهلي. مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد 16، العدد 1.

18. المسدي، عبد السلام (1993). الأسلوبية والأسلوب. تونس: الدار التونسية للنشر.

19. الواد، حسين (2003). في المناهج النقدية القديمة. تونس: دار الجنوب.

20. تودوروف، تزفيتان (2003). مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بن علي، تقديم محمد برادة. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.